مقاصد الدعاء في القرآن العظيم

إعداد
أ. د. أحمد محمد هليل
قاضي القضاة إمام الحضرة الهاشمية
بالمملكة الأردنية الهاشمية

مَقاصِدُ الدُّعاءِ
في القُرآنِ العَظيمِ

إعداد

أ. د. أحمد محمّد هليل

قاضي القضاة إمام الحضرة الهاشميّة

بالمملكة الأردنية الهاشمية

الطبعة الأولى

١٤٣٦/ ٢٠١٤ م

الإصدار السادس من إصدارات

كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم

ح

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
هليل : احمد محمد
مقاصد الدعاء في القرآن العظيم. / احمد محمد هليل.-
الرياض، ١٤٣٥هـ
٠٠ص؛ ٠×٠سم
ردمك: ٧-٢٧٥-٥٠٥-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - ادعية ٢- الادعية و الاذكار أ. العنوان
ديوي ٢١٢,٩٣ ١٤٣٥/٩١٧٦

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٩١٧٦
٥ردمك: ٧-٢٧٥-٥٠٥-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُوله الأَمين، أما بعدُ:

فقد تَشرَّفتُ بتَلقِي دَعوَةٍ كَريمةٍ مِن أَخِي صَاحِبِ المَعَالي الأستاذِ الدُّكتور: سُليمانَ بنِ عبدِ اللهِ أبا الخيل، مُديرِ جامعةِ الإمام محمّد بن سُعُود الإسلامية، المُشرِفِ العَامّ على كُرسيّ الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم، لاستضافتي أُستَاذاً زائراً خِلال شهر الله المُحرّم لعامّ: ١٤٣٦هـ بمشيئة الله – تعالى – وَعَونِه.

وقد استَجَبتُ لهذه الدَّعوة بكلِّ معاني الشُّكر والامتنان، والتَّقدير والعِرفَان، لمعاليه ولكرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم، ولأَخي أُستاذ الكُرسي صاحب الفَضِيلة الأُستاذ الدُّكتور إبراهيم بن سعيد الدُّوسري، وتقدّمتُ بهذا – البحث المُتواضع بجهدي – بعنوان: " مقاصد الدُّعاء في القرآن العظيم " استجابةً للأَمرِ الكريمِ في تقديم وَرَقة عَمل في إحدى القَضايا المُعَاصرة في ضوء القُرآن الكريم.

المقدِّمة

الحَمدُ للهِ رَبِّ الأَرضِ والسَّماء، سَميعُ الدُّعاء، كاشفُ الضُّرِّ والكرب والبَلاء، أَحمَدُه سُبحَانه وأَشكُره، ومِن ذُنوبي أَستغفره، وأشهَدُ أنَّ نبيَّنا مُحمَّداً عَبده وَرَسُوله، إمَام الحُنفاء والأتقياء، اللهم صلِّ وسلِّم وبَارك على نَبيِّك وخليلك محمّد، وعلى آله وَصَحبِه ومَن استنَّ بسنَّته إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الدُّعاء أنيسُ المُحبين، وطريقُ السَّالكين، ومَحكُّ الصَّالحين، ودَأبُ المُخلِصين، ونَجاةُ المُضطرين، ومَفزعُ العَالَمين، ومَأوى الضُّعفاء والمحرُومين قال – تعالى –:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، بل عدّه النّبيّ صلّى الله عليه وسلم في حدّ ذاته عبادة كاملة حيثُ قال: " الدُّعاء هو العبادة "[1].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٤)، والترمذي في سننه (٣٣٧٢) من حديث النّعمان بن بشير – رضي الله عنهما – مرفوعاً.

والله – عزّ وجلّ – بفَضلِه وجُوده وكَرمه، يحثُ عِبَاده على دُعائه ورَجائه، وحُسن اللَّجاء إليه، وجَميل التَّوكل عليه، قال – تعالى –: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال الله – تعالى – في الحديث القُدُسيّ: " يا ابنَ آدم! إنَّك مَا دَعَوتَني ورَجَوتَني غَفَرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابنَ آدم! لو بَلَغَت ذُنوبك عَنَان السَّماء ثمّ استغَفرتني غَفَرتُ لك ولا أبالي، يا ابنَ آدم! لوأنَّك أَتيتني بِقُرابِ الأرض خَطَايا ثمّ لقِيتَني لا تُشرك بي شيئاً لأَتَيتك بِقُرابها مغفرة "[1].

فإنّه – سبحانه – لا يُبالي ولا يَكترث بعباده إذا لم يدعوه؛ فإنه إنّما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً؛ لذا قال – سبحانه –: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧]، كما أنّ الله يُحِبُّ العَبد اللَّلحوحَ في مسألته وطلبه، ويغضبُ ممّن لم يدعه، فقد

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠) من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – مرفوعاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّه مَن لم يَسألِ الله يَغضبْ عليه "[1].

لذا الدُّعاء ومعيّة الله للعبد مُتلازمان، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " قالَ اللهُ – عزّ وجلّ –: أنا عِند ظَنِّ عَبدي، وأنا معه إذا دَعَاني"[2]؛ لذا كانت عِنَاية العُلماء العَاملين كبيرة في شأن الدُّعاء ومقاصده وأسراره ومعانيه.

الدُّعاء صلة بين العبد الفقير العاجز، بربه القوي الغني العزيز؛ لذا كان العبدُ بحاجة إلى أن يقف مُتذللاً خاشعاً مُنكسراً مُنطرحاً على عَتَبَات العُبوديّة، سائراً إلى ربه في منازل إيّاك نعبدُ، وإيّاك نستعين، رافعاً أكُف الضَّراعة لربّه ومَولاه – جلَّ في عُلاه، وتقدَّس في عَالي سَماه – لا يَسأل إلّا إيّاه، يُنَاجيه ربّاه ربّاه، يَبُث بين يَدي مَولاه شَكواه، مُؤملاً رَحمَته ورِضَاه، طَالِباً تَوفِيقه وهُداه،

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٨٦) وابن ماجه في سننه (٣٨٢٧) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً.

(٢) حديث صحيح. والبخاري في الأدب المفرد (٦١٦) والترمذي في سننه (٢٣٨٨) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً.

قال – تعالى – في قصة نبيِّه يعقوب – عليه السَّلام – مع أولاده: "﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦].

ومِن بَديع ما يُروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيثُ قال:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُواْ ... وَبِتُّ أَشْكُو إِلى مَوْلاَيَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ يَا عُدَّتِي في كُلِّ نَائبَةٍ ... وَمَن عَلَيْهِ لكَشْفِ الضُّرِّ أَعْتَمَدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا ... مَا لي عَلَى حِمْلِهَا صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدَيَّ بالذُّلِّ مُعْتَرِفاً ... إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَد
فَلا تَرُدَّنَّهَا يَا رَبِّ خَائبَةً ... فَبَحرُ جُوْدِكَ يَرْوِي كُلَّ مَن يَرِد[1]

لذا كان الوقوف على مقاصد الدُّعاء من أهم المطالب العالية، ومن أسنى المواهب السَّامية، خاصّة بخَوض بَحرِ مَعَانيها الخِضَمّ، وجمع أسرَارها والتقاط دُرَرِها وعِلَلِها وأمَّ، مُستَحضِراً في ذلك الجمع بين مقاصد الشَّريعة الغرَّاء، ومقاصد الدعاء.

(١) انظر: مجاني الأدب في حدائق العرب ١٢/٤.

ومن هنا جاءت أهميّة هذه الدّراسة، وبخاصّة أنّ فيها جمعاً بين علوم القرآن ومقاصد الشّريعة، وتزداد الأهمية في ذلك قلّة الكاتبين من المُعاصرين، علماً أنّ الدِّراسات المقاصديّة قد استفاضت في هذا العصر، إلّا أنَّها في هذا الجانب فيها عَوَزٌ ونَقصٌ أسألُ الله أن تكونَ هذه الدِّراسة نَواة خَير للدّراسات بعدها، وهذا لا يعني أنّني لم أُسبق بما كتبت – حاشا – بل هذه الدراسة امتداد للدّراسات السّابقة، والمرجو استمرار هذه الأبحاث، والله الموفّقُ لا ربَّ سِوَاه.

ومهما بحث الباحثون، وكتب الكاتبون، فستظل كلمات الله دائمة لا تنفد، وسيظل إعجاز القرآن العظيم قائماً لا ينقطع، كما قال – سبحانه –: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

الفصل الأول
تعريف بمقاصد القرآن

المبحث الأول: تعريف مقاصد الشريعة:

لقد أضحى مُقرّراً عند المقاصديّين المُعاصرين أنّ القُدَامَى لم يُعرّفوا المقاصد تعريف الحدِّ والمحدود؛ لأسباب خَاضَ فيها المُعاصرون – ليس هذا موضع بسطها – وإن كانوا قد تناولوها في ثنايا كتب التفسير والإعجاز القرآني لذا سأقتصرُ على تعاريف بعض المُعاصرين أهمها:

قال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور: " مقاصدُ الشَّريعة العامّةُ هي: المعاني والحِكَمُ الملحوظةُ للشارع في جميع أحوال التّشريعِ أو معظمها، بحيثُ لا تختصُّ ملاحظتُها بالكون في نوعٍ خاصٍّ مِن أحكام الشّريعة، فيدخلُ في هذا: أوصاف الشريعة، وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التّشريع عن ملاحظتها. ويدخلُ في هذا أيضًا

معانٍ من الحِكَم ليست ملحوظةً في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظةٌ في أنواع كثيرة منها"[1].

وعرّفها بعضهم: " المراد بمقاصد الشّريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[2].

وقال آخر:" إنّ مقاصد الشّريعة هي الغايات التي وضعت الشّريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد "[3].

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية (٥٥) محمد الطاهر ابن عاشور، دار السلام – مصر – القاهرة ط٥.

(٢) مقاصد الشريعة ومكارمها (٧) علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة – المغرب- الدار البيضاء ط٤.

(٣) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (١٥) د. أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- الولايات الأمريكية – ط١.

المبحث الثاني: التعريف بمقاصد القرآن، وبيان أنواعها:

تعريف مقاصد القرآن:

لقد تناول الأقدمون مقاصد القرآن بصورة منثُورة في مُصنَّفاتهم وكتبهم، من ذلك ما ذكره العلاّمة العزّ بن عبد السّلام حيثُ قال:

" معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزَّجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها "[1] وقال في موضع آخر:

" ولو تتبّعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة لعلمنا أن الله أمر بكلّ خير دقّه وجلّه، وزجر عن كلّ شرّ دقّه وجلّه، فإنّ الخير يعبّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشّرّ يعبّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح "[2].

لذا لم يُعَرِّف القُدامي مقاصد القرآن في مؤلفاتهم على النَّحو الذي نراه في مصنفات المعاصرين، ولعل السبب في ذلك اشتغالهم في تأصيل المقاصد وتقعيدها وإعمالها وتنزيلها على أرض الواقع،

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٨/١) مكتبة الأزهرية — مصر – القاهرة ط١.

(٢) المصدر السابق (١٨٩/٢).

بحيثُ كانت تخالط لحمهم ودمهم، كيف لا ! والشَّريعة دائمة الحديث حول مقاصد الخلق، بل جلّ المعاصرين لم يُعَرِّفُوها كذلك، ومن الذين عرَّفوها الدكتور عبد الكريم الحامدي، حيثُ قال في تعريف مقاصد القرآن ما نصّه: "مقاصد القرآن هي الغايات التي أُنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد"، ثم قال فالغايات المراد بها المعاني والحكم المقصودة من إنزال القرآن، وهي شاملة لأنواع المقاصد العامة والخاصة والجزئية.

وهذه الغايات تهدف إلى تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، ويمكن تعريف المقاصد **العامة**: "هي الغايات الملحوظة في جميع القرآن أو معظمه".

ومن الأمثلة على ذلك: مقاصد التوحيد والعبودية لربّ البرية، أو مقاصد التكليف الشرعي، أو مقاصد الأخلاق، أو مقاصد الاستخلاف في الأرض.

تعريف المقاصد **الخاصّة**: "هي الغايات الملحوظة في أنواع خاصّة من تشريع القرآن"، وذلك نحو: مقاصد الدّعاء، أو مقاصد القضاء، أو مقاصد المعاملات المالية، أو مقاصد الزواج.

تعريف المقاصد **الجزئيّة**: "هي الغايات الملحوظة في آحاد أحكام القرآن"،

من مثل: مقاصد تشريع الوضوء، أو مقاصد الصّلاة، أو مقاصد الصدقة، أو مقاصد الطواف بالكعبة المشرفة.

وعليه فإنّ مقاصد الدّعاء في القرآن تتعلّق بالمقاصد الخاصّة على العموم من حيث نوع الدعاء ومقصده العام الدال عليه، وعلى المقاصد الجزئيّة من حيثُ الآحاد والخصوص، فكلّ آية تحمل تحت طيَّاتِها من الأسرار والحِكَم الخاصَّة الدّالة عليها.

وفي دراستنا هذه، نجمع بين نوعي المقاصد الخاصّة والجزئيّة للدّعاء في القرآن الكريم، مُستنبطين معانيها من مبانيها؛ لننظر في نتائج البحث والتّوصيات الّتي نتوصل إليها مستعينين على ذلك بالله العظيم.

أنواع مقاصد القرآن:

للعلماء في تحديد مقاصد القرآن مذاهب، أرجحها ما قاله الدكتور عبد الكريم حامدي حيث قال:

" إذا اتّبعنا المعيار الذي يقسِّم المقاصد تقسيماً ثلاثياً إلى مقاصد عامّة، وخاصّة وجزئيّة، فإنّه يمكن بناء عليه تقسيم مقاصد القرآن إلى ثلاثة أقسام:

١- مقاصد عامّة.

٢- مقاصد خاصّة.

٣- مقاصد جزئيّة.

ثم قال: ضابط المقصد الخاص يدور حول المعاني والحكم المتعلقة بأنواع معيَّنة من التشريعات.

وضابط المقصد الجزئي يدور حول المعاني والحكم المتعلقة بآحاد الأحكام.

لقد قام العلامة محمد رشيد رضا بتقسيم مقاصد القرآن إلى عدّة أنواع ذكرها تحت عنوان: " مقاصد القرآن في إصلاح النوع الإنسان ":

المقصد الأوّل: – الإصلاح لأركان الدّين الثلاثة، وهي الإيمان بالله تعالى، والإيمان بعقيدة البعث والجزاء، والعمل الصالح.

المقصد الثّاني: – تصحيح عقائد البشر في الرسل، وذلك ببيان ما جّهِلَ البشر من أمور النُّبوّة والرّسالة ووظائف الرّسل.

المقصد الثّالث: – بيان أنّ الإسلام دين الفطرة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والبرهان، والحُجَّة، والضّمير، والوجدان، والحرّية، والاستقلال.

المقصد الرّابع: – الإصلاح الاجتماعي الإنساني والسّياسي الذي يتحقّق بالوحدات الثّماني وهي: وحدة الأمّة والدِّين، والتَّشريع، والأخوّة الدِّينيّة والجنسيّة والسّياسيّة، والقضاء واللّغة.

المقصد الخامس: – تقرير مزايا الإسلام العامّة في التكاليف الشّخصيّة الواجبة والمحصورة في عشر قواعد كلّيّة:

الأولى: كونه جامعاً لحقوق الرّوح والجسد.

الثانية: كون غايته الوصول إلى سعادة الدّنيا والآخرة.

الثّالثة: كون الغرض منه التأليف بين البشر.

الرابعة: كونه يسراً.

الخامسة: منع الغلو في الدِّين وإباحته للطيّبات والزّينة.

السادسة: قلّة تكاليفه وسهولة فهمه.

السّابعة: انقسام تكاليفه إلى عزائم ورُخص.

الثامنة: كون نصوصه مراعى فيها درجات تفاوت البشر في العقل وعلّو الهمّة وضعفها.

التّاسعة: معاملة النّاس بظواهرهم.

العاشرة: مدار العبادات على الاتباع المحض، وأحكام المعاملات على المصالح مع مراعاة النّصّ.

المقصد السّادس: بيان حكم الإسلام السّياسي الدّولي: نوعه وأساسه وأصوله العامّة.

المقصد السّابع: الإرشاد إلى الإصلاح المالي.

المقصد الثّامن: إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها، وفلسفتها.

المقصد التاسع: إعطاء النّساء جميع الحقوق الإنسانيّة والدِّينيّة والمدنيّة.

المقصد العاشر: هداية الإسلام في تحرير الرَّقيق"[1].

ومن هنا فإنّ المقاصد الخاصّة من تشريعات القرآن هي:

المقصد الأول: إصلاح العقل، ويهدف إلى إصلاح الاعتقاد.

المقصد الثاني: إصلاح النَّفس، ويهدف إلى إصلاح الظاهر والباطن

المقصد الثالث: إصلاح الجِسم، ويهدف إلى حفظه من عوارض الهلاك كالأمراض وغيرها.

المقصد الرابع: الإصلاح العَائلي، ويهدف إلى حفظ العائلة.

المقصد الخامس: الإصلاح المَالي، ويهدف إلى حفظ الأموال.

---

(١) الوحي المحمدي (١٨٥ – ١٨٧)، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٩.

المقصد السادس: الإصلاح العِقَابي، ويهدف إلى حفظ المصالح الضّرورية للإنسان كحفظ الدِّين والنفس والعقل والنَّسل والمال.

المقصد السَّابع: الإصلاح السّياسي، ويهدف إلى حفظ نظام العالم.

المقصد الثَّامن: الإصلاح التَّشريعي، ويهدف إلى حفظ الشريعة "[1].

(١) المدخل إلى مقاصد القرآن (١٣٤-١٣٥) د. عبد الكريم حامدي، بتصرف - مكتبة الرشد – المملكة العربية السعودية ط١.

الفصل الثاني
مقاصد الدُّعاء في القرآن العظيم

مقاصد الدُّعاء الخاصّة في القرآن العظيم:

المُتأمل في مقاصد الدُّعاء في القرآن يراها تتعدَّد وتتنوَّع، وجُلّ هذه المقاصد تَهدِفُ لتحقيق المقصد الأسمى من الخلق، وهو تحقيق العُبوديّة والتَّوحيد الخالص لربِّ العالمين، وغيرها من المقاصد الكليّة والجزئيّة والخاصّة التي تعود على المقصد الأعلى بالتَّحقيق والنَّفع؛ فهي كلّها خَادِمَة لأصله، ومُقَوِيّة لفرعه، ومُثَبِّتَة لجوانبه؛ لذا سنذكر طَرَفاً من هذه المقاصد على النَّحو التَّالي:

المقصد الأوَّل:

وهو أعظم المقاصد

طلب الهداية لسلوك الصّراط المستقيم كما في قوله تعالى:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧].

ذلك هدى الله يهدي به من يشاء لذا قال – سبحانه –:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

العبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، فهو مضطر إلى مقصود الدعاء الراتب الذي يتكرر بتكرر الصلوات، وهو الدعاء الذي تتضمنه أم القرآن، فإنه لا نجاة من العذاب إلاّ بهذه الهداية، ولا وصول إلى السَّعادة الأبدية إلا به، فمن فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليه أو من الضالين.

لذا اشتملت آية الفاتحة على الهداية وطلبها وَيْكَأَنَّهم يقولون: علمنا يا ربّنا وألهمنا لسلوك الصّراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النّبيّين والصّدقيين والشّهداء والصّالحين، المشتمل على علم ما يحبه الله ورسوله، ومحبته وفعله على وجه الكمال، وعِلم ما يكرهه الله ورسوله ويغضبه وتركه من كلّ وجه، ومن مقصد هذا الدُّعاء طلب الهداية على وجه الشُّمول والعموم للفرد والمجتمع قاطبة، ففيه من تحقيق مقاصد الهداية العامّة والخاصّة

بنوعيها حيث جاء الدُّعاء بصيغة الجمع لا بصيغة الإفراد، وهذا من مقاصد الدُّعاء التي تُنمّي روح الجماعة فيما بين المسلمين[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدِّين والدنيا والآخرة، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن – دع ثلثه – و لم يحصل له مقصود هذا الدّعاء لم يقم مقامه و لم يسدّ مسدّه "[2].

وقال أيضاً:

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٨].

وَقَالَ – تَعَالَى –:﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]... وهذه الهداية الخاصّة التي أعطاه إيّاها بعد فتح الحديبية أخصّ ممّا تقدم؛ فإن السّالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء،

(١) انظر: المواهب الربانية من الآيات القرآنية (٧٨) للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتناء وتعليق نادر بن سعيد آلمبارك، مكتبة أهل الحديث، دبي ط١.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣٢/١٧).

ويزيده الله هدى بعد هدى، وأقوم الطّريق وأكملها الطّريق التي بعث الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم كما قال – تعالى – ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] "[١].

العقل السّليم مؤيد للنقل الصّحيح:

من المعلوم أن العقل من أعظم النعم والمنن الإلهية التي يُجتَلَبُ بها الفهم والهداية، فهو: " آلة الفهم وحامل لواء الأمانة، ومحلّ الخطاب والتّكليف وملاك أمور الدِّين والدُّنيا "[٢]، بل قال الإمام الشّاطبي: " لو عُدِمَ العقل لارتفع التَّدين "[٣]، " وتعطَّلت جميع المصالح، وآلَ العِمرَان البشري إلى الفَوضى والخَراب "[٤]، لذا " أثنى الإسلام على أصحاب العُقول، وأولي الألباب والتّفكر والاتعاظ،

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١٨١/٣) تحقيق علي حسن، وعبد العزيز بن إبراهيم، وحمدان بن محمد دار العاصمة، المملكة العربية السعودية – الرياض – ط٢.

(٢) محمد بن محمد الغزالي شفاء العليل (١٠٣) دار الكتب العلمية ط١.

(٣) الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي (١٤/٢) تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخُبر – المملكة العربية السعودية – ط١.

(٤) انظر: مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية (٢٦٧) تأليف عبد النور بزا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الولايات الأمريكية – ط١.

وقد خصَّهم الله – تعالى – بالخطاب، فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، " ومدحهم بأنّهم هم الذين يتذكرون، كما في قوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وبأنّهم هم الذين يعتبرون، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

فالعقل تَبَعٌ للشّرع لا العكس؛ لذا قال الفقيه السَّمعَانِي:

" واعلم أنّ فصل بيننا وبين المبتدعة، هو مسألة العقل، فإنّهم أسّسوا دينهم على المعقول، وجعلو ا الاتباع والمأثور تبعاً للمعقول"[1].

ولقد تصدى أهل السّنّة والجماعة للرَّد على أصحاب هذا المنهج، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيميّة في كتابه الحافل العُجَاب المعروف بـــ " درء تعارض العقل والنّقل "، وكذا شيخ الإسلام الثّاني ابن القيّم وخاصّة في كتابه الماتع" الصّواعق المُرسلة " وغيرها من الكتب.

وهذا المقصد – أعني: مقصد الهداية - يُحقّق حفظ الضّروريات الخمس، ويحيط بها ويرعاها ويكملها، وعليه فهذا مقصد خاصّ خادم ومؤكد للمقاصد الكلّيّة مُتمم لها، إذ بفقده اختلالٌ بوجه ما.

---

(١) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضاً ونقداً (٢٦٢/١)، تأليف سليمان بن صالح بنعبد العزيز الغصن، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية – الرياض – ط١.

المقصد الثّاني:

الثَّبات ولزوم الاستقامة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٨ - ٩].

ومن هنا جاء تحقيق هذا المقصد على لسان الرّاسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التّام، حيثُ سألوا ربّهم وتوسلوا إليه بالرّبوبية في حصول أفضل الوسائل لتحقيق أفضل المقاصد، وهو استقامة القُلوب على محبة علام الغيوب والثّبات على ذلك وعدم زيغها عن الهداية التي هي مِن أجَلِّ المقاصد للحصول على رحمة الله – تعالى – التي ينبثقُ معها خير الدّنيا والآخرة، ثمّ تراهم يختمون الدّعاء بالتوسل تارة أخرى إلى ربّهم باسمه الوهاب، الذي يهب كثيراً، واسع الكرم، كثير العطاء، كثير المنّ، فهم في مبتدإ دعائهم بالتوسل بربّهم وفي ختمه بالتّوسل، وما بين ذلك بأعمال القلوب التي أنبأت عنها هذا التّوسل في أعلى مراتبه، ذلكم حتّى تستقيم القلوب على طاعة علام الغيوب، وأن لا تزيغ، وأن يهبَ

لها رحمة؛ لأنّ الرّحمة من لدنه – سبحانه – لا يَقدِّر قّدرها ولا بركتها ولا خيرها إلا الذي وَهَبها إياهم[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وإنّما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يُعينَه على ما يحبه ويرضاه، ويُزيده ممّا يقرّبه إليه، ويرفع به درجته"[2].

ويدلّ عليه قوله – سبحانه –: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

وقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْٓاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

---

(١) انظر: المواهب الربانية (٨١) للعلامة السعدي.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩٨/١١).

قال ابن أبي زَمَنين:" تَسألُ الثَّباتَ على الإيمانِ، فَامرَأَةُ فِرعَونَ ومترِلَتُهَا عند اللَّهِ لم تُغنِ عن فِرعون مِن اللَّهِ شيئاً؛ إذ كان كافراً "[1].

فقد ثبتت على الحقّ وعلى الصّراط المستقيم، رغم عيشها في حصون وقلاع الكفر، ورَغَد العَيش إلّا أنّها آثرت الآخرة على متاع الحياة الدُّنيا، وبهذا المقصد حفظ مقاصد كلّيّة من الضروريات الخمس.

(١) تفسير القرآن العزيز (١٩٠/٤) تأليف محمد بن عبد الله الإلبيري، المعروف بابن زَمنين (ت ٣٩٩هـ)، تحقيق حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز – دار الفاروق – مصر، القاهرة، ط٢.

المقصد الثّالث:

السَّماحة والتَّيسير ورفع الحرج عن الأمة، وذلك في قوله عزَّ اسمه:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

السَّماحة واليُسر بَوابَة الإسلام، وعِنوان الإيمان، ومُرتَقى الإحسان، فالإسلام سهل المأخذ والمنال، لا حرج في تشريعاته، فأحكامه موافقة للطِّباع الصَّحيحة، مُسدَّدة بالفطرة، ومُؤيَّدة بالعقل السَّليم، مَرفوعٌ عنها الأغلالَ والآصارَ التي كانت على الأمم المَاضية، فهو وَسَطٌ بين الأمم، عدلٌ في أحكامه، رحمةٌ في جميع أحواله.

قال العلامة ابن عاشور:" السّماحة سهولةُ المعاملة في اعتدال، فهي وسطٌ بين التّضييق والتّساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتّوسط... إنّ حكمة السّماحة في الشّريعة، أنّ الله جَعَلَ هذه الشّريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعةٌ إلى الجِبلَّة فهي كائنةٌ في النفوس سَهلٌ عليها قَبولها ومن الفطرة النُّفور من الشدة والإعنات "[1].

ومن هنا كانت الحكمةُ مِن التَّيسيرِ ورفع الحرج أنّ التّكاليف الشّرعيّة غايتها الإصلاح، ولا صلاح للقلوب مع الحرج والمشقة وما لا يُطاق، وهذا مظهر من مظاهر احترام الإنسانيّة في ظلال الأحكام والحِكَم الشَّرعيَّة؛ لذا كانت السماحة واليسر من أفضل الإسلام كما قال إمام الحنفاء محمّد صلى الله عليه وسلم:" أفضل الإسلام الحنيفية السَّمحة"[2].

لذا كانت عبادته – صلى الله عليه وسلم – فيها الوسطية والاعتدال، كما ورد عن علقمة قال: سألتُ عائشةَ – رضي الله عنها – كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية (٦٦-٦٧).

(٢) حديث حسن انظر: صحيح الجامع رقم (١٠٩٠) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

كان يخص شيئا من الأيام ؟ قالت: لا، كان كلّ عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع"[1].

وما خير بين أمرين إلا ختار أيسرهما فقد أُثر عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: " ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه "[2].

لذا الغلو والتنطع ليس من الدّين، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة:٧٧].

وجه ذلك ما قاله الإمام الشاطبي: " فاعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين:

---

(١) متفق عليه.أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٦) ومسلم في صحيحه (٢١٧) به.

(٢) متفق عليه.أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٦٠) ومسلم في صحيحه (٢٣٢٧) به.

أحدهما: الخوف من الانقطاع من الطريق، وبغض العبادة، وكراهة التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

والثاني: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده، إلى تكاليف أخر تأتي في الطريق، فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلا عنها، وقاطعا بالمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء، فانقطع عنهما "[1].

(١) الموافقات (٢/٩١). وانظر في ذلك: مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية والرد على شبهات المعاصرين (١٣٦) تأليف عبد الناصر حمدان بيومي إبراهيم، دار اليُسر – مصر – القاهرة ط١.

المقصد الرّابع:

الجمع بين مصالح الدِّين والدُّنيا والآخرة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

فتأمل حينما صدَّروا دُعاءهم بقولهم: ربّنا ! مُحقِّقين في ذلك معنى الرُّبوبيّة العامّة وهي الخَلق والتَّدبير والمُلك، والرُّبوبيّة الخاصّة لخاصّة أوليائه الذين ربَّاهم بِلُطفه، وتولّاهم برحمته، وأَخرَجهم مِن الظُّلمات إلى النّور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم؛ وهذا مُتضمن لافتقارهم إلى ربّهم، وأنّهم لا يقدرون على تربية نفوسهم من كلِّ وجه، فليس لهم ربّ سواه يُصلح أحوالهم، ويُدبر معاشهم، ويصلح معادهم؛ ولأجل هذا كانت أغلب مَقاصد الأدعية القرآنيّة مُصَدَّرة بتحقيق هذه الرُّبوبيّة؛ لأنّها أعظم مقصود على الإطلاق التي فيها تحقيق مقام العبودية التي من خلالها تحصيل خيري الدُّنيا والآخرة[1].

(١) انظر: المواهب الربانية (٧٩) للعلامة السعدي.

لهذا قال الإمام الشاطبي عن الشارع: " وإنما جاء بما يقيم أمر الدنيا وأمر الآخرة معاً"[1].

وقال القرطبي المُفَسَّر: " ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصِدَ بها مصالحُ الخلقِ الدِّينيةُ والدُّنيويةُ "[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها "[3].

وقال أيضاً:

" ومن تأمل العبادات وما فيها من محاسن الأقوال والأفعال المُوجِبة للتَّقرب إلى ذي الجَلال، وتخفيفها عند الأشغال، وتحصيلها للمصالح الجلية في الدُّنيا والآخرة... - ثمّ ذكر طرفاً من المصالح - وقال:

---

(١) الموافقات (٢/٧٧).

(٢) تفسير القرطبي (٢/٦٤) تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - مصر - القاهرة ط ٢.

(٣) الفتاوى (٢٠/٤٨).

عُلِمَ بالاضطرار أنّ ذلك تنزيلٌ مِن حكيم حميد، متلقًّى من لَدُن حكيم خبير... أنزل الأحكام متضمنةً لمصالح العباد في الدّنيا والآخرة، ولهذا يأمر دائماً بالاصلاح، ويُثني على الذّين يعملون الصَّالحات، ويَنهى عن الفساد ويذمُّ المفسدين "[1].

وهذا المقصد الذي يحفظ الشّارع فلا يختّل له نظام، ولا يضطرب له مقام، سواء كان ذلك في الضروري أو الحاجي أو التَّحسيني؛ لهذا جاء الشَّارع قاصداً المصالح على الإطلاق، فمن هنا كان وضعها على وجه فيه أبديّة لا يقبل النّسخ - بعد البعثة — لعالميّة الرّسالة بما يوصل إلى مصالح الآخرة.

(١) تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل (١/١٠٧-١٠٨) تحقيق علي بن محمد العمران، ومحمد عزير شمس، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد — مكة المكرمة — ط١.

المقصد الخامس:

طلب المغفرة والثبات على الحقّ، والنَّصر على الأعداء، وذلك في قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧ – ١٤٨].

وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فقد حَوَت هاتان الآيتان طلب الثَّبات على المنهج الحقّ في مواطن المِحن والشِّدَّة ممّا يؤُول إلى حفظ المَقصِد الأسمى، وهو حفظ الدين والعقل ممّا يترتب عليه حسن ثواب الدُّنيا والآخرة.

وتضمنت الآية الأولى طلب مغفرة الذنوب والخطايا الموصل إلى الثباتوالنّصر على القوم الكافرين، فمن المعصية نزلت الهزيمة بالمسلمين، ومن الذُّنوب تأخرنا عن الرَّكب، ومن التَّشبه بالكافرين خُذِلنا، لذا قال – سبحانه – وانصرنا على القوم الكافرين، و لم يقل: على أعدائنا؛ قال العلامة محمّد صالح العُثَيمِين:

" كأنهم يقولون: انصرنا عليهم من أجل كفرهم؛ وهذا في غاية ما يكون من البعد عن العصبية، والحمية؛ يعني ما طلبنا أن تنصرنا عليهم إلا لأنهم كافرون"[1].

من أهم مقاصد المغفرة من الذّنوب والخطايا، تحقيق صلاح البلادوالعباد، وذلك عن طريق تزكية النّاس وتربيتهم على التّوحيد والسّنّة، وقيم الإسلام ومبادئه الصّحيحة النقية مِن الشّرك والبدع والخُرافة، والغلو والتَّطرف، وتحقيق التّزكية والتّربية من مقاصد البعثة النّبويّة كما قال – تعالى –: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

(١) تفسير القرآن الكريم (٢٢٩/٣) دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية – الـدمام – ط١.

ولّما كان الثّبات على الحقّ رأس الأمر، مهما بلغ العابد من منازل العبوديّة فلا بدّ من الافتقار والدّعاء بالثبات، كيف لا ! وهو دعاء إمام الأوّلين والآخرين فقد ورد عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكثرُ أن يقول: اللهم ثبت قلبي على دينك ! فقال رجل: يا رسول الله، تخاف علينا وقد آمنا بك، وصدقناك بما جئت به، فقال: إنّ القُلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن – عزّ وجلّ – يُقلبها. وأشار الأعمش بإصبعيه "[1].

لذا عدّ شيخ الإسلام ابن تيمية لزوم الطاعة والاستغفار كرامة من الكرامات فقال: " وأن الكرامة لزوم الاستقامة وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه"[2].

وطلب النَّصر كما في قوله تعالى: ﴿مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

(١) حديث صحيح.أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٨٣٤) مرفوعاً.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٤٩).

قال الحافظ ابن كثير: " أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿ فَٱنتَصِرۡ ﴾ أنت لدينك "[1].

وهذا مقصد عظيم فيه حفظ الأصول الكلية بحفظ الدين والنفس، والخاصة بتكميلها والجزئية بتتميمها، هذا ممّا يُؤكد قوّة العلاقة بين هذه المقاصد الثلاثة.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٦).

المقصد السّادس:

طلب أدب السّلوك الذي يؤُول إلى حفظ الشّريعة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣ – ٦٦].

فهذا كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ أوصاف ومسالك خلَّصِ عبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهم الدَّنيويةِ المشتملة على مكارم الأخلاق، والأخُروَّيةِ بعد بيان حال النَّافرين عن عبادتِه[1].

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣٦٥/٦) لأبي السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١.

فها هو دعاءُ عباد الرّحمن ! الذين وصفهم الله بكلّ خلق جميل، وشأن جليل، وأعدّ لهم المنازل العالية الرّفيعة، فإذا بهم يتوسلون بربوبية الله لهم وإيمانهم، أن يَقيهم عذابَ النّار، وإذا وَقَاهم الله عذاب النّار كان من لازم ذلك، مغفرة الذُّنوب وتكفير سيئاتهم، ودخولهم الجنّة، ولا شكّ أنّ مَن كان هذا حاله وهذا وصفه أنّه سيقف على رؤوس كمالات الأخلاق، ومَحاسنها قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً، فلن يكون منهم الفساد والافساد في الأرض، ولن يخرج منهم ما فيه الاقذاع للغير كيف لا، وهم الذين وصفهم الله – عزّ وجلّ – بعباد الرّحمن حيثُ نسبهم إليه. وخص الإضافة إلى صفة الرّحمن؛ لِمَا لها من بعث الرّحمة والشّفقة في قلوبهم[1].

فقد حَسُنَ دُعاؤهم، بعد ما أن استقام خُلُقُهم، استجابة لدُعاء نبي الرَّحمة: " اللهم كما حسنت خَلْقي فحسن خُلُقي"[2].

(١) انظر: المواهب الربانية (٨٤-٨٥) للعلامة السعدي.

(٢) حديث صحيح.

انظر: صحيح الجامع (٢١٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعاً.

فمن رَامَ محاسن الأخلاق وسلوك السائرين، إلى ربّ العالمين، وأن يرتقي مدارج السالكين، ومنازل العابدين، فعليه بخلق الإسلام كما قال سيد المرسلين: " إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق "[1].

(١) حديث صحيح.

انظر: صحيح الأدب المفرد (٢٧٣) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً.

المقصد السّابع:

الإصلاح الأسري الذي يهدف إلى حفظ العائلة، وحفظ المجتمع أجمع، وذلك يتمثل في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤ – ٧٧].

لقد امتدحهم الله – جلّ وعلا – في هذه الآية بتوسلهم إلى ربّهم أن يَهِبَ لهم الأزواج والذّرية الصّالحة، التي تقرّ بها أعينهم استجابة لقوله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

ولا شكّ أنّ صلاح الأسرة هو صلاح للمجتمع أجمع، إذ هو لبنة الأساس في إصلاح المجتمع وحضارته، " من أجل ذلك كان الاعتناء بضبط نظام العائلة من مقصد الشّرائع كلّها، وأصل ذلك الحفاظ على أمر العائلة، هو إحكام آصرة النّكاح، ثم إحكام آصرة القرابة، ثم إحكام آصرة الصهر"[1]؛ لذا كان من دعائهم وتوسلهم تحقيق هذا المقصد، وفي ذلك الحث على التَّرقي في العمل، وأن لا ينقطع العابد في سيره إلى ربه حتى يعبد الله إلى أن يأتيه اليقين.

(١) مقاصد الشريعة للطاهر ابن عاشور (١٧٣).

وإنما يحفظ هذا المقصِد مِن جميعِ جَوانبه، فهو يشملُ :

الدُّعاء للآباء:

وذلك في قوله – سبحانه –:

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

وقوله:

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والمُتأمّل في رِقَةِ ورحمة دُعَاء إبراهيم – عليه السَّلام – لأبيه – وهو على كفره – خوفاً عليه من عذاب نار جهنم، بالمغفرة يعلم يقيناً من قرارة نفسه، أنّ للدّعاء نفعاً ممّا نزلَ، وما لم يترل؛ لهذا دعا – ربه سبحانه – فقال:

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٦ – ٨٩].

قال الحافظ ابن كثير: "وقوله: {واغفر لأبي إنه كان من الضالين}، كقوله: {ربنا اغفر لي ولوالدي} إبراهيم:٤١، وهذا ممّا رجع عنه إبراهيم – عليه السلام – كما قال تعالى: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم} التوبة:١١٤وقد قطع الله – تعالى – الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة

والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء} [الممتحنة:٤]"[١].

وهكذا جاء في نصوص كثيرة الحث على الدّعاء للوالدين وبرّهما، إذ هو أصل البرّ وصلة الأرحام، ومن بديع ما أُثِرَ عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: ما سَمِعَ بي أحد، يهودي ولا نصراني إلّا أحبَّني، إن أُمّي كنتُ أُريدها على الإسلام فتأبى، فقلت لها: فأبت، فأتيتُ النّبيّ صلّى الله عليه وسلم فقلتُ: ادعُ الله لها، فدعا، فأتيتها وقد أَجافَت عليها الباب – فقالت: يا أبا هريرة! إني أسلمت، فأخبرت النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: ادع الله لي ولأُمي، فقال: " اللهم! عبدُك أبو هريرة وأُمّه، أحبِّهما إلى النَّاس"[٢].

بل رَغِبَ أبو هريرة – رضي الله عنه – باستمرار الدعاء لوالدته؛ لذا وَرَدَ عن محمّد بن سِيرين أنَّه قال: كنّا عند أبي هريرة

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٧١).

(٢) حديث حسن، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٦) به.

ليلةً فقال: " اللهم اغفر لأبي هريرة، ولأُمي، ولمن استغفر لهما " قال محمد: فنحن نستغفر لهما؛ حتى ندخلَ في دعوة أبي هريرة[1].

ونحنُ نقولُ: اللّهم اغفر لأبي هريرة ولأمّه، بل اللّهم اغفر لكلّ الصّحابة الكرام – رضي الله عنهم – رغم أُنُوفِ الحَاقِدين المُبطِلِين ممّن طَعَنَ أَو غَمَزَ أَو لَمَزَ بالصَّحابة العِظَام الكرام.

ومن هنا كان رضا الربّ – سبحانه – من رضا الوالدين كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:" رضا الربّ – تبارك وتعالى – في رضا الوالدين، وسخط الله – تبارك وتعالى – في سخط الوالدين"[2].

الدُّعاء للزَّوجَة:

صلاح الرّاعي فيه صلاح الرّعيّة، والمرأة راعية في بيت زوجها مسؤولة عن رعيتها، لذا خُصَّت بالدُّعاء، بل في صلاحها ديمومة الحياة الزّوجيّة، التي هي مكملة لحفظ مقصد عظيم من

(١) أثر صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٧) به.

(٢) حديث حسن لغيره. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٤٤٥) وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٠٣) للمنذري تحقيق العلامة الألباني.

الضروريات الخمسألا وهو النَّسل، ومن هنا كانت بعض الأدعيّة القرآنيّة مخصوصة بالزوجة :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال الحافظ ابن كثير:" فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابا، وأحسن مآبا "[1].

وأيضاً في قوله – تعالى –:

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤٦).

الدُّعاء للأبناء:

فالدُّعاء بصلاح الذُّرِيَّة، من المهام العليّة، والمقامات السمية، التي رغَّبَ بها الإسلام الحنيف، فبصلاح الأولاد تعلو روح السكينة والرحمة في البيت، والمحبة والإخاء في المجتمع، والنصر والتمكين للمسلمين، فالنتأمل الأدعية القرآنيّة التّالية:

قوله تعالى:

﴿ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقوله:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥].

وقوله:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

الدُّعاء للمؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

والدّعاء للمجتمع مقصِد مطلوب لذاته؛ لذا كان من جميل دعاء الملائكة أنْ قالوا:

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [غافر: ٨].

وقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقوله: ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ﴾ [نوح: ٢٨].

وقد اجتمع الدُّعاءان دعاء المؤمنين الأتقياء، ودعاء الملائكة الأنقياء، بدعاء المؤمن لأخية في ظهرالغيب حثّاً على تقوية هذه الشُّجنة الأخويّة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

"من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله"[1].

ولهذا حثّنا الإسلام إلى تعلُّم علم الأنساب؛ لتحقيق هذه الغاية النّبيلة العالية، والمقاصد الرّفيعة السّامية، وزيادة هذه اللُّحمة والرَّابطة الأخويّة، فقال علية الصّلاة والسّلام:

---

(١) حديث صحيح.

انظر: صحيح الجامع وزيادته (١١١٨٠) للعلامة الألباني.

" تَعَلَّمُوا أنسابَكُم، ثمَّ صلُوا أرحَامكُم، واللَّهِ إنَّه ليكُون بين الرَّجلِ وبين أَخيه الشَّيءُ ولو يعلَمُ الَّذي بينه وبينه مِن دَاخِلَةِ الرَّحمِ، لأَوْزَعَهُ ذلك عن انتِهَاكه"[1].

بل جميع أدلة الدّعاء للمجتمع، يدخل فيها – بدلالة اللزوم –، كلّ من تقدم ذكرهم من الآباء، والزّوجة، والأبناء، وهذا تفصيل في الأدلة وإجمال، من الملك الواحد المتعال، فيه التّنبيه على هذه الرّابطة القويّة المحقّقة لمقصدها بأجلى صورة، بأساليب مختلفة التي إن دلت على شيء، فإنّما تدلّ على أهمية هذا المقصد العظيم، بل النّاظر والمتأمّل في عدد كبير من أحكام التّشريع – إن لم نقل كلّها – مُؤيِّدة لهذا المقصد النبيل، وهذا لا يحتاج إلى كثير تدليل، وبسط الأقاويل والله من وراء السبيل.

وهذا مقصد جزئيّ محاطٌ بإطارِ المقصد الكلّي، فالأسرة جزء من الأمةالمسلمة، ففي صلاحها وهدايتها، رعاية للأمة الإسلامية بأسرها، وتحقيق لمقاصد كثيرة كليّة وخاصّة وجزئيّة، يَرعَى بعضها

(١) حديث حسن الإسناد، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٣/٧٢) من طريق جبير بن مطعم أنَّه سمع عمرَ بنَ الخَطَّابِ رضي اللَّهُ عنه يقولُ على المِنبَرِ فذكره.

بعضاً، ويدرء عنها العطب، ويدفع عنها التَّفرق والتَّشيع شيعاً وأحزاباً؛ فتصبح مصدر قوّة، وذلك باعتصامها بكتاب ربها كما قال – تعالى-: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

المقصد الثّامن :

طلب حسن الخاتمة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٢ – ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨٥].

فبعد هذه النِّداءات المُتكررة والاستغاثات المُشتملة على الذُّل والافتقار والانكسار للملك الغفار، سرعان ما جاءت الاستجابة لدعائهم، ممّا يدلّ على أنّ الله يُحِبُ المُلحين في الدُّعاء المُؤملين بربَّهم تحقيق الرَّجاء، وأنّه سبحانه لا يُضِيع أعمالهم: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣٥]، ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ [محمد: ٥].

فهم المُقبلون على الأعمال الصالحة، فلا يُضيع أعمالهم، وبيّن أنّه لا فرق في ذلك بين ذكر أو أنثى، رافعاً لما خالط عقولهم، ومازج قلوبهم في الجاهليّة، من التّفرقة بين الذّكر والأنثى في كثير من الأحكام – بغير مسوّغ –، فقد قرّر الإسلام العدل بينهما، مع مراعاة حال كلّ منهما، وهذا مَقصِد من مقاصد التّشريع التي فيها تَجلِيَة لشأن المَرأة في الإسلام، وفي ذلك ردّ على التّيارات المعاصرة الجارفة المُجازفة، التي تدعوا إلى تحرير المرأة !! – زعموا – فإذا

بالاسلام يُتوجها تاج الوقار، ويلبسها ثوب العزّ والفخار، مُبيّناً ما لها من حقوق وما عليها من واجبات، وما للرّجل من حقوق وما عليه من واجبات، في أعلى وأبهى صور العدالة والانصاف، بما يناسب فطرة كلّ منهما، قال – سبحانه – ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢].

ومن جميل الدّعاء في صحيح السنة المطهرة ما ورد عن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه؛ فإن كان لا بدّ فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي "[1].

(١) متفق عليه.

المقصد التّاسع:

الإيمان سبب المغفرة والوقاية من النار؛ وعليه فمصالح الدنيا إنما تقام بما يوصل إلى الآخرة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦].

وفي قوله تعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فإن الدعاء بإخلاص وصادق الإيمان، هو مظنة القبول وتحقيق التقوى، لذا " فليس كل من ادعاها لنفسه أو تحرك بها لسانه يعد متقياً، وإنما المتقي من يعلم من ربه التقوى، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أن الجنة للمتقين.. ذكر شيئاً من صفاتهم فبدأ بالإيمان الذي هو رأس التقوى وأساسه فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ بدل من

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين يقولون في الدنيا ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وصدقنا بك وبرسولك إجابة لدعوتك ﴿فَٱغْفِرْ﴾ اللهم ﴿لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ واسترها وتجاوز عنا بعفوك عنها واترك العقوبة عليها ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي وادفع عنا عذاب النار بفضلك وكرمك إنك أنت الغفور الرحيم، وقد خصوا هذا العذاب بالمسألة؛ لأن من زحزح عن النار يومئذ.. فقد فاز بالنجاة وحسن المآب"[1].

طلبوا المغفرة للذّنوب والوقاية مِن النّار لِمَا استقرَّ في أذهانهم أنْ لا مَصَالح في الدُّنيا إلّا إذا كانت تقام الحياة الدنيا للآخرة، فالدّنيا مزرعة الآخرة،.

لذا قال الإمام الشّاطبي – رحمه الله –: " المَصالحُ المُجتلَبةُ شرعًا والمفاسدُ المُستدفَعَةُ إِنَّما تُعتبرُ مِن حيثُ تُقَامُ الحياةُ الدُّنيا

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٤/٢١٠) محمد الأمين بن عبد الله الهروي، دار طوق النجاة، لبنان – بيروت – ط١.

للحياة الأُخْرَى، لا من حيثُ أهوَاءِ النُّفُوسِ في جلْبِ مصالِحِهَا العادِيَّةِ، أو درءِ مَفَاسِدِهَا العَادِيَّةِ "[1].

وتتحقق المغفرة إلا إذا كان الأمر كله لله كما قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وهذا لا يعني أن نترك الدنيا كما قال تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

أي أن الحياة الدنيا لا بد أن تكون بما يخدم الدِّين ويحقق مصالحه وعليه تحقيق الحياة الطيبة قال تعالى:

---

(١) الموافقات (٦٣/٢).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وفي هذا المقصد الحث على الإيمان بالله حقَّ الإيمان، الذي يكفر الذّنوب، ويقي عذاب النّار، وهذا فيه حفظ مقصد الدِّين وهو مقصد من المقاصد الكلية، بل هو آخذ بيد المقصد الآتي، وهو الحث على العمل.

المقصد العاشر:

الحثّ على العمل بما يعود على مقاصد الشريعة بالنفع، وذلك في قوله:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

إنّ الشّريعة الإسلاميّة هي التي تسعى على تحقيق جانب العمل، لهذا أعلى الإسلام من شأن السّعي والعمل، وجعل من مقاصد الخلق والوجود: تعمير الكون وتنمية الإنسان؛ ليكون خليفة في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالإنسان خلقه الله ليعمل وينتج ويتعلم ويدرس، ويعبد الله ويشكره، حتى بلغ حرص الإسلام على العمل أن أمر المسلم بالغرس، ولو قامت السّاعة؛ لما ورد عن النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

" إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وفي يدِ أحدِكُم فَسِيلَةٌ؛ فإن اسْتَطَاعَ أنْ لا تَقُومَ حتَّى يَغْرِسَهَا، فليغرسها"[1].

ومن هنا جاء الجمع بين الدُّعاء والأعمال الصَّالحة في الآية لتدليل على علو مترلة الدُّعاء، وذلك لما تضمنه الدُّعاء من كمال الذُّل والافتقار للملك الغفار، وإنّما جاء الدُّعاء بعد العمل حتى لا يَركن العامل إلى عمله، وحتى يجدد النّية، ويُواصل العمل بعد البناء بالدّعاء، وما بينهما من أعمال القلوب الدَّالة عليهما الذي يهدف إلى حفظ الشّريعة كاملة.

ومن أحسن الأعمال ما كان فيه إعلاء ذكر الله – خاصّة المساجد –، كما أن من أحسن الأقوال من دعا إلى الله – خاصة الدعاء لله – ، وبهذا تعلم السر في الجمع بينهما في بناء قبلة المسلمين من قبل إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – لذا قال الحافظ ابن كثير:

" يقول تعالى: واذكر – يا محمد – لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل – عليهما السّلام – البيت ورفعهما القواعد منه، وهما

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/١٩٥) وصححه الألباني.

يقولان: {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما "[1].

من الأدلة على الحث على العمل قوله تعالى: –

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[الملك: ١٥].

والعبد الطائع لربه، السائر على درب نبيه، السالك لمنهج سلفه، لا بدّ أن يكون خائفاً وَجِلاً، وإن كان من أعبد النّاس، وأزهد العُبَّاد؛ كما ورد عن أُمِّنَا عائشة – رضي الله عنها – قالت: قلت: يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر ؟ قال: لا، يا بنت أبي بكر أو يا بنت الصديق،

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٢٠) تحقيق سامي بن محمد سلامه، دار طيبة للنشر ط٢.

ولكنه الرّجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يتقبل منه"[1].

لذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(١) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في سننه (٣١٧٥)، وابن ماجه في سننه (٤١٩٨) كلاهما من حديث أُمّنا عائشة – رضي الله عنها – مرفوعاً.

المقصد الحادي عشر:

دعاء الشّكر والعرفان، للملك الرّحمن، بالعلم النافع، والعمل الصّالح، يدلّ عليه قوله تعالى:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

فهذا توسل إلى الله بربوبيته، أن تكون أعمال العبد خالصة لوجه الله تعالى مقرونة بالاستعانة بالله، والتّوكل عليه، وذلك يستلزم أن تكون جميع الحركات والسكنات للعبد طاعة لله، وعملاً بما يحبه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهة العمل، وأمّا الكمال من جهة العلم؛ بأن يجعل الله له سلطاناً نصيراً، أي حجّة ظاهرة، وقوّة ناصرة، يُحقق فيها العدل، فيحصل في ذلك العلم النّافع والعمل الصّالح الذي يخدم المقصد العام.

الشُّكر والعرفان للملك الرَّحمن من أسباب الثَّبات على الحقّ الموصل إلى الوفاة على أحسن حال؛ لذا كانت هذه الدَّعوة من

أنفع الأدعيّة التي ينبغي للطائع الدوام عليها، نسأل الله أن يتوفنا مسلمين، وأن يلحقنا بالصّالحين.

قال العلامة ابن القيم:

" جمعت هذه الدّعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء"[1].

(١) التفسير القيم (٢٤٧) تحقيق مكتبة الدراسات الإسلامية بإشراف إبراهيم رمـــضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت – ط١.

المقصد الثّاني عشر:

استغفار ودعاء الملائكة حملة العرش للمؤمنين الذين آمنوا وتابوا، وذلك في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧ – ٩].

فهذا دعاء جامع نافع، من أعظم الخلق معرفة بالله، وهم الملائكة الذين﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ يدعون أن يغفر الله للمؤمنين الطائعين، ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ ولعباده التائبين الذين اتبعوا المنهج الحقّ في سيرهم إلى ربّهم، وفي

ذلك انسجام بين الملائكة والخلق، فالملائكة يدعون للطائعين العابدين التّائبين، والمؤمنون يؤمنون بهم وبأعمالهم ممّا ينتج عن ذلك الإيمان بالغيب.

وهذا يدل على عظيم رحمة الله بعباده، أن سخر لهم من يستغفر لهم، خاصة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قال البغوي: " قال مُطَرِّفٌ: أنصحُ عباد الله للمؤمنينَ هم الملائكة، وأغشُّ الخلق للمؤمنين هم الشياطينُ "[1].

(١) معالي التنزيل (٤٦٧/٥) تحقيق عبدالرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١.

المقصد الثّالث عشر:

تحقيق روح المحبة والأُخوة بين المؤمنين، يتضح ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

بث روح الأخوة والمحبة بين المسلمين وذلك بتضرعهم إلى ربّهم بسعة رحمته ونعمته ورأفته، أن يغفر لهم ولجميع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان وأن يصلح الله قلوبهم بالاجتماع على الإيمان، وأن لا يجعل في قلوبهم أدنى غلٍّ لكلِّ من اتّصف بالإيمان وطاعة الرَّحمن، بعيداً عن الفُّرقة والشُّقة.

وهذه الرّوح الأخويّة، والمحبة الإيمانيّة، تُرجمت على أرض الواقع في عهد المهاجرين والأنصار – رضي الله عنهم أجمعين – لذا كان حبهما من الإيمان.

لذا كان اتباعهم دلالة على الحقّ والسنة قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ولذا نبذ الإسلام الفرقة وحث على الجماعة:

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: " فإنّ التّفرق والاختلاف يقوم فيه من أسباب الشرّ والفساد وتعطيل الأحكام ما يعلمه من يكون من أهل العلم العارفين بما جاء من النُّصوص في فضل الجماعة والإسلام "[1].

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٧٧).

المقصد الرَّابع عشر:

طلب حفظُ الدِّين والإيثار من أجله، وذلك في:

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٥ - ٨٦].

وهذا من أحسن الأدعية القرآنية التي فيها التّنبيه إلى أنّ حفظ الدِّين مُقدَّمٌ على حفظ النَّفس؛ ذلك أنّ في ظفر المشركين وتسلطهم على المؤمنين مفسدة في مآلها عائدة على الدِّين، مع أنّ قتل المؤمنين مفسدة أخرى راجعة على النّفس؛ لكن المفسدة الرَّاجعة على النَّفس أخف من المفسدة العائدة على الدِّين فمن هنا دعوا الله - مُتوسِّلِينَ- أن لا يظفروا بهم لا لذواتهم بل لحفظ دينهم وأي تضحية لأجل الدِّين بعد هذه الحالة.

قال الحافظ ابن كثير:" أي: لا تُظفِرهُم بنا، وتُسَلِّطهُم علينا، فَيظُنُّوا أنَّهم إنَّما سُلِّطُوا لأنَّهم على الحقّ ونحن على الباطل "[1]، وتكرر المقصد نفسه أيضاً في:

(١) تفسير القرآن العظيم (٢١٨) تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر ط٢.

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٥].

قال العلامة البغوي: " رَبَّنا لا تجعَلنا فِتنةً للَّذين كفَرُوا، قال الزَّجَّاجُ: لا تُظهِرهم علينا فَيظُنُّوا أَنَّهم على الحقِّ فيفتتنوا.

وقال مُجاهدٌ لا تُعَذِّبنَا بأَيديهِم ولا بِعذابٍ مِن عندك فيقولون لو كان هؤُلاء على الحقِّ ما أصابهم ذلك، واغفر لنا ربَّنا إنَّك أنت العزِيزُ الحكِيمُ "[1].

(١) معالم التنزيل (٥٤٩).

المقصد الخامس عشر :

الإخلاص سرّ الخلاص وقَبول الأعمال، وذلك في:

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

وفي هذا الدُّعاء تتجلى فيه رحمة الله – تعالى – واستجابته لدعاء المُخلصين من الكفار على كفرهم، حينما تلاطمت بهم الموج ، وفي ذلك حفظ مقصد التوحيد، والتَّنديد بالآلهة التي تُعبد من دون الله، وفيه أيضاً بيان العدل الرَّباني ورحمته التي شملت حتى الكفار، لمثل هذا تشرئب الأعناق لداعي الفطرة والجبلَّة ممّا يعرفونه في صدورهم لكنهم جحدوها واستيقنتها أنفسهم ظلماً واستكباراً، كما قال – تعالى –: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

قال الإمام الشاطبي:

"المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطرارًا "[1].

وقال العلامة ابن القيم:

"ولما امتُحنَ المُكلف بالهوى من بين سائر البهائم، وكان كلّ وقت تَحدُثُ عليه حوادث، جُعِلَ فيه حَاكمان: حاكم العقل، وحاكم الدِّين، وأُمِرَ أن يرفعَ حوادث الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين، وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرَّنَ على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه"[2].

---

(١) الموافقات (٢/١٦٥-١٥٣).

(٢) روضة المحبين (٤٧٠)، دار الكتب العلمية بيروت – ط١.

وانظر: مقاصد المكلفين عند الأصوليين (٢٦٠) تأليف د. فيصل بن سعود الحليبي، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية ط١.

المقصد السَّادس عشر:

مقصد تعظيم شعائر الله وهو يرشد إلى المقاصد الحاجيّة خادمة للمقاصد الضروريّة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٧ – ٤١].

إعمار البيت الحرام بأفئدة النّاس التي تَهوي إليه، ويَهوي إليها لأجل الطّواف وإخلاص التّوحيد لله – سبحانه –، في بيتٍ لا

تُوجد فيه مُقومات الحياة في ذلك الوقت، فلا زَرع ولا ضَرع، ولا مَأوى ولا كلاءَ، وأنت – سبحانك – تعلم سرّنا وعلانيتنا، وتعلم ما تخفيه السَّرار، وما تكنّه الضّمائر؛ لأنّك وحدك علّام الغيوب، لا تخفى عليك خافية.

في هذه الأيات توسل إبراهيم – عليه السّلام – إلى ربّه أن يرزقهم من الثّمرات لا لمجرد التِّجارات والتَّرفه والخروج عن المقصد الذي وضعت من أجله التجارة، بل حتى يتمكنوا من استمرار العيش الذي فيه حفظ الدِّين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدلُّ على أن الحاجيات خادمة للضروريات وإنما كانت للتوسعة على العباد في معيشتهم ليحققوا المقصد الذي من أجله شرعت الحاجيات[1].

(١) انظر في ذلك: الموافقات (٢/٢٤)

قال ابن عاشور:

"ومحَبَّةُ النَّاسِ إيَّاهم يَحصلُ معها محَبَّةُ البلد وتَكريرُ زيارتِه، وذلك سَبَبٌ لاستِئنَاسِهم به وَرَغبَتِهم في إقامةِ شعائرِه، فيُؤَوَّلُ إلى الدَّعوة إلى الدِّينِ.

ورجاءُ شُكرِهم دَاخِلٌ في الدُّعاء لأَنَّه جعلَ تَكملَةً له تَعَرُّضًا للإجابَةِ وزِيَادَةً فِي الدُّعَاءِ لهم بأن يكُونُوا من الشَّاكِرِينَ. والمَقصُودُ: تَوَفُّرُ أسبَابِ الانقِطَاعِ إلى العبَادَةِ وانتِفَاءِ ما يَحُولُ بينهم وبينها مِن فِتنَةِ الكدح للاكتساب"[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٦٠/١٣) الدار التونسية للنشر، ط١.

المقصد السَّابع عشر:

حفظ الضروريات الخمس في جانب الوجود والعدم، يدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

إنّما يتحقق ذلك في جانب الوجود الذي يقيم أركانها، ويثبت قواعدها؛ وذلك مُتحقَّق بالثبات على الحقّ في قولهم: (وثبت أقدامنا)، وفي جانب العدم وذلك في دفع ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع وهذا متحقق في مغفرة الذنوب والإسراف في الأمر؛ وذلك في قولهم:(ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا)، ويجمع ذلك كلّه الظُّهور على القوم الكافرين = (وانصرنا على القوم الكافرين)، وذلك متحقق في الجهاد في سبيل الله – سبحانه- فالجهاد جهادان جهاد طلب – وفيه حفظ جانب الوجود – بجلب المصالح المتحقّقة فيه، وجهاد دفع – وفيه حفظ جانب العدم – بدفع المفاسد النّازلة بأهله، فتحقق في ذلك حفظ الضروريات الخمسة في جانب الوجود والعدم.

وقد قرّر ذلك الإمام الشاطبي حيثُ قال في حفظ الضروريات الخمسة:

" والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم "[1].

(١) الموافقات (٢/١٨).

المقصد الثّامن عشر:

الدُّعاء الدَّعوي وذلك في قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾ [طه: ٢٥ – ٣٢].

ينبغي أن يكون هذا الدُّعاءُ مَلجَأُ الدُّعاة، إذ كلّ داعية بحاجة له، وخاصّة في إقباله على المهام والأمور العِظام، فلا حول له ولا قوّة إلّا بالله، فهو مفتقرٌ إلى مُبتَغَاه، الفقير إلى رحمة ربّه مولاه، لا يفزعُ في دعائه إلّا إيّاه، فهذا حاله في عسره ويسره، وفي جميع أمره.

قال الآلوسي: " واعلم أن شرح الصدر من نعم الله تعالى على الأنبياء وكمل الأولياء، وقد أخذ منه نبيّنا – عليه السّلام – الحظّ الأوفى؛ لأنّه حصل له بصورته ومعناه، إذ شق صدره فى، صباوته وألقى عنه العلقة التي هى حظّ الشّيطان ومغمزه، وغُسِلَ فى

طست من الذّهب، وأيضاً فى البلوغ إلى الأربعين لينشرح لتحمل أثقال الرّسالة، وفى المعراج ليتسع لأسرار الحقّ – تعالى – فجاء حاملاً للأوصاف الجليلة التي لا تُوصف من الحلم، والعفو، والصبر، والكف، واللطف، والدّعاء، والنّصيحة، إلى غير ذلك، ﴿ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِى ﴾ سهّل على أمر التّبليغ بإحداث الأسباب ورفع الموانع "[1].

وهذا الشّرح الّذي ناله موسى – عليه السّلام – وأَخذَ منه نبيّنا محمد – عليه الصّلاة والسّلام – بالحظّ الأوفى، هو الذي امتن الله به عليه صلى الله عليه وسلم كما قال ربُّ – العزّة والجلال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ١ – ٤].

(١) روح البيان (٣٧٨/٥) لأبي الفداء إسماعيل حقي الاستانبولي، دار الفكر – بيروت – ط١.

وهو أيضاً ما نالته أمّته – عليه السّلام – كما قرّره الإمام الشّاطبي في قوله: " كما أن الأحكام والتكليفات عامة في جميع المكلفين على حسب ما كانت بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما خصّ به، كذلك المزايا والمناقب، فما من مزية أعطيها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى ما وقع استثناؤه، إلا وقد أعطيت أمته منها أنموذجاً، فهي عامة كعموم التّكاليف، بل قد زعم ابن العربي أن سنة الله جرت أنّه إذا أعطى الله نبيّاً شيئاً أعطى أمته منه، وأشركهم معه فيه – ثمّ ذكر من ذلك أمثلة؛ وما قاله يَظهرُ في هذه الملة بالاستقراء... – ثم ذكر الشاطبي أمثلة على ذلك منها:

والثامن: شرح الصّدر، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

وقال في الأمة: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢] "[1].

(١) الموافقات (٢/٤١٥-٤٢٥).

طلب شرح الصَّدر مقصد داخل في الأمر الأولي، ممّا يُدلّل على أنّه مقصدٌ أَصلِيّ لا تَبَعيّ، وعليه فإنّ الشّرح سبب موصلٌ للحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله – الدعاة – وعلمهم في قوله عزّ – اسمه –:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

لهذا لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم – سيّد العلماء يوم القيامة – معاذ بن جبل ومن معه – رضي الله عنهما – إلى اليمن، قال لهما: " بشرا ويسِّرا ولا تنفرا وتطاوعا "[1]، ذلك أنّه أدعى للقبول، والاجتماع حول كلمة التّوحيد، كما قال ربُّ العبيد:

---

(١) حديث صحيح.

انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٥٣٤٩) تحقيق العلامة الألباني، دار باوزير للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية – جُدة – ط١.

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

المقصد التَّاسع عشر:

دعاء كشف الضرّ ، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

كشف الضر والبلاء، ورفع المرض واللأواء، من مقاصد حفظ النفس الآيلة إلى حفظ الدين، لذا دعا أيوب عليه السلام بهذا الدعاء، خاصة أن صحة الأديان من صحة الأبدان، ومن هنا كانت من النعم المغبون فيها كثير من الناس كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصّحة والفراغ "[1].

---

(١) حديث صحيح.

أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٢) من حديث عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – به.

قال ابن القيم: " جمع في هذا الدّعاء بين حقيقة التّوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربّه، ووجود طعم المحبة في التَّمَلّق له، والإقرار له بصفة الرّحمة، وأنّه أرحم الرّاحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدّة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلي هذا كشفت عنه بلواه "[1].

وهكذا كشف الله العذاب عن قوم يونس – عليه السلام – بدعائهم وإيمانهم فقال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٥ - ١٣٦].

---

(١) تفسير القرآن الكريم (٣٨١/١) تحقيق مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال لبنان – بيروت – ط١.

وهو حال المسرفين كما قال ربّ العالمين:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

المقصد العشرون:

دعاء طلب النجاة من الغمّ وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]، ونجى الله موسى من الغم فقال:

﴿ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا ﴾ [طه: ٤٠].

وقد استعاذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الغمّ، فكان يدعو ويقول: " اللهم إنّي أعوذ بك من الهرم والتّردي والهدم والغمّ والحريق والغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشّيطان عند الموت، وأن أُقتل في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً "[1].

---

(١) حديث صحيح.

أخرجه النسائي في سننه (٥٥٣٢) من حديث أبي اليسر مرفوعاً.

زوال الغمّ من لأمور المطلوبة شرعاً، إذ بتزوله في ساحة القلب تحدث كدراًواضطراباً، يُؤثر على العابد عبوديته، وعلى السّالك مسلكه، لذا استعاذ منه النّبيّ – صلى الله عليه وسلم – وعلمنا ذلك وأن ندعو بدعوة ذي النون كما ورد عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له "[1].

(١) حديث صحيح.

أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٣) به.

المقصد الحادي والعشرون:

الدَّعوة إلى التَّوحيد والطَّاعة، وذلك كما في قوله تعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] غير ذي زرع.

قال الحافظ ابن كثير:

" ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته... وقوله: ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه: ﴿ بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنّه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي

تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصّلاة والسّلام "[1].

دعوة التوحيد دعوة الأنبياء والرسل والحنفاء، وهي أول واجب على العبيد. فما من نبي إلا قال لقومه ﴿ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

وهو أول ما يبدء به الدعاة والعلماء أسوة بأمر إمام الموحدين صلى الله عليه وسلم لما أمر معاذ بن جبل حينما أرسله إلى اليمن فقال له: " إنك تأتى قوما من أهل الكتاب. فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥١٣).

فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم[1].

وهذا مقصد المقاصد الأعظم الذي تدور عليه دعوة الأنبياء والرسل، وكلّ المقاصد المتقدمة خادمة له ومكملة له، بل ما خلق الله الخلق إلا لأجله لذا قال – سبحانه – ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

نسأل الله أن نحيا على التّوحيد، وأن نموت على التّوحيد، وأن نكون دعاة إلى التّوحيد.

---

(١) متفق عليه.

أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٩) ومسلم في صحيحه (٣٧) به.

النتـــــائـــــج

من أهم النتائج التي أفرزها البحث المقاصد التالية وهي:

١- طلب الهداية لسلوك الصّراط المستقيم.

٢- الثبات ولزوم الاستقامة.

٣- السماحة والتيسير ورفع الحرج عن الأمة.

٤- الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

٥- طلب المغفرة والثبات على الحقّ، والنَّصر على الأعداء.

٦- طلب أداب السّلوك الذي يؤُول إلى حفظ الشّريعة.

٧- الإصلاح الأسري الذي يهدف إلى حفظ العائلة، وحفظ المجتمع أجمع.

٨- طلب حسن الخاتمة.

٩- ٩-الإيمان سبب المغفرة والوقاية من النار؛ وعليه فمصالح الدنيا إنما تقام بما يوصل إلى الآخرة.

١٠- الحثّ على العمل بما يعود على مقاصد الشرع بالنفع.

١١- دعاء الشّكر والعرفان، للملك الرّحمن، بالعلم النافع، والعمل الصّالح.

١٢- استغفار ودعاء الملائكة حملة العرش للمؤمنين الذين آمنوا وتابوا.

١٣- تحقيق روح المحبة والاخوة بين المؤمنين.

١٤- طلب حفظُ الدِّين والإيثار من أجله.

١٥- الإخلاص سرّ الخلاص وقَبول الأعمال.

١٦- مقصد تعظيم شعائر الله وهو يرشد إلى المقاصد الحاجيّة خادمةللمقاصد الضروريّة.

١٧- حفظ الضروريات الخمسة في جانب الوجود والعدم.

١٨- الدُّعاء الدَّعوي.

١٩- دعاء كشف الضرّ.

٢٠- دعاء طلب النجاة من الغمّ.

٢١- الدَّعوة إلى التَّوحيد والطَّاعة.

التـــوصيـــات

لا شكّ أنّ الوقوف على مقاصِد وأسرار الدُّعاء ممّا يَخدم المقاصدَ العامّة ويكملها، فإنّ المقاصد الخاصّة والجزئيّة يُكمِّلُ بعضها بعضاً، ذلك أنّه إذا كَمُلت المقاصد الجزئيّة، كملت المقاصد الخاصّة، وإذا كملت المقاصد الخاصّة كملت المقاصد العامّة؛ فدلّ ذلك على أنّ المقاصد الجزئيّة كالفرع للأصل العام ومعتمد عليه، كالصِّفة مع الموصوف، وهذا يُرشدنا إلى أهميّة هذه الدِّراسة، ومِن ثَمّ تَتميمِها بدراساتٍ أخر تستوعب أدعية القرآن العظيم – عامّة– ، واستنباط المقاصد الجزئيّة منها، ثمّ دراسات أخر تربط بين هذه الدّراسات، على نمطٍ استقرائي تحليلي نخلص فيه إلى ما يلي:

١. بيان مقاصد وأسرار الدُّعاء في القرآن مُحتفّة بأقوال المفسّرين والمقاصديّين والرَّبط بين كلامهم لإخراج مقصد الشارع واستثمارها على مراد الشارع.

٢. بيان العلاقة بين المقاصد الثلاثة، أعني: العامّة، والخاصّة، والجزئيّة.

٣. توسيع دائرة البحث؛ وذلك باستخراج مقاصد الدُّعاء من السّنّة المطهّرة على نمط مقاصد الدُّعاء في القرآن.

٤. الجمع بين هذه الدِّراسات، والخروج بمقاصد استقرائيّة للدُّعاء من الكتاب والسّنّة، وفي ذلك تقديم الجديد للبحث العلمي.

هذا وما كان من خلل أو زلل أو خطل فمني ومن الشّيطان – واستغفر الله منه –، وما كان من حقّ وصواب فمن الله وحده، والله أسأل التّوفيق والسّداد والهدى والرَّشاد.

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العَالمين، وصلَّى الله على محمَّد وعلى آله وصحبه الطَّيبين الطَّاهرين.

قـــائمـــة المـــراجـــع

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخاري.

٣- صحيح مسلم.

٤- سنن الترمذي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٥- سنن ابن ماجه تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٦- صحيح الجامع الصغير وزيادة تحقيق محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي.

٧- صحيح الأدب المفرد تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٨- شعب الإيمان للبيهقي.

٩- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

١٠- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان تحقيق العلامة الألباني، دار باوزير للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية – جُدة – ط١.

١١- تفسير القرآن العزيز تأليف محمد بن عبد الله الإلبيري، المعروف بابن زَمنين، تحقيق حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكتر – دار الفاروق – مصر، القاهرة، ط٢.
١٢- تفسير القرطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – مصر – القاهـــــرة ط ٢ تفسير القرآن الكريم دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية – الدمام – ط١
١٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١.
١٤- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين بن عبد الله الهروي، دار طوق النجاة، لبنان – بيروت – ط١.
١٥- التفسير القيم تحقيق مكتبة الدراسات الإسلامية بإشراف إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت – ط١.
١٦- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر ط٢.

١٧- معالم التنزيل للبغوي تحقيق عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي ط١.
١٨- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر، ط١.
١٩- روح البيان لحقي الاستانبولي الألوسي، دار الفكر – بيروت – ط١.
٢٠- المواهب الربانية من الآيات القرآنية للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتناء وتعليق نادر بن سعيد آل مبارك، مكتبة أهل الحديث، دبي ط١.
٢١- المدخل إلى مقاصد القرآن د. عبد الكريم حامدي، بتصرف – مكتبة الرشد – المملكة العربية السعودية ط١.
٢٢- تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل تحقيق علي بن محمد العمران، ومحمد عزير شمس، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة – ط١.

٢٣- مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية والرد على شبهات المعاصرين تأليف عبد الناصر حمدان بيومي إبراهيم، دار اليُسر – مصر – القاهرة ط١.
٢٤- مقاصد المكلفين عند الأصوليين تأليف د. فيصل بن سعود الحليبي، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية ط١.
٢٥- مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار السلام – مصر – القاهرة ط٥.
٢٦- مقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة – المغرب- الدار البيضاء ط٤.
٢٧- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي تأليف د. أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- الولايات الأمريكية – ط١.
٢٨- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام – مكتبة الأزهرية – مصر – القاهرة ط١.
٢٩- الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٩.
٣٠- مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٣١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق علي حسن، وعبد العزيز بن إبراهيم، وحمدان بن محمد دار العاصمة، المملكة العربية السعودية — الرياض – ط٢.
٣٢- شفاء العليل محمد بن محمد الغزالي دار الكتب العلمية ط١.
٣٣- الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخُبر – المملكة العربية السعودية – ط١.
٣٤- مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية تأليف عبد النور بزا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الولايات الأمريكية – ط١.
٣٥- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضاً ونقداً، تأليف سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية — الرياض – ط١.
٣٦- روضة المحبين ابن القيم، دار الكتب العلمية بيروت — ط١.

فـــهـــرس المـــوضـــوعـــات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الأول: تعريف بمقاصد القرآن	١٣
المبحث الأول: تعريف مقاصد الشريعة	١٣
المبحث الثاني: التعريف بمقاصد القرآن وبيان أنواعها	١٥
الفصل الثاني: مقاصد الدعاء في القرآن الكريم	٢٣
مقاصد الدعاء الخاصة في القرآن	٢٣
المقصد الأول: طلب الهداية لسلوك الصراط المستقيم	٢٣
المقصد الثاني: الثبات ولزوم الاستقامة	٢٩
المقصد الثالث: السماحة والتيسير ورفع الحرج عن الأمة	٣٢
المقصد الرابع: الجمع بين مصالح الدنيا والآخره	٣٦
المقصد الخامس: طلب المغفرة والثبات على الخير والنصر على الأعداء	٣٩
المقصد السادس: طلب أدب السلوك الذي يؤول إلى حفظ الشريعة	٤٣
المقصد السابع: الإصـــلاح الأســـري الذي يهدف إلى حفظ العائلة وحفظ المجتمع أجمع	٤٧
المقصد الثامن: طلب حسن الخاتمة	٥٨
المقصد التاسع: سبب المغفرة والوقاية من النار	٦١
المقصد العاشر: الحث على العمل بما يعود على مقاصد الشريعة بالنفع	٦٥

الموضوع	الصفحة
المقصد الحادي عشر: دعـــاء الشكر والعرفان للملك الرحمن، بالعلم النافع، والعمل الصالح	٦٩
المقصد الثاني عشر: استغفـــار ودعـــاء الملائكة حملة العرش للمؤمنين الذين آمنوا وتابوا	٧١
المقصد الثالث عشر: تحقيق معنى المحبة والأخوة بين المؤمنين	٧٣
المقصد الرابع عشر: طلب حفظ الدين والإيثار من أجله	٧٥
المقصد الخامس عشر: الإخلاص سر الخلاص وقبول الأعمال	٧٧
المقصد السادس عشر: مقصد تعظيم شعائر الله وهو يرشد إلى المقاصد الحاجيّة خادمة للمقاصد الضروريّة	٧٩
المقصد السابع عشر:حفظ الضروريات الخمس في جاني الوجود والعدم	٨٢
المقصد الثامن عشر: الدعاء الدعوي	٨٤
المقصد التاسع عشر: دعاء كشف الضر	٨٩
المقصد العشرون: دعاء طلب النجاة من الغم	٩٢
المقصد الحادي والعشرون: الدعوة إلى التوحيد والطاعة	٩٤
النتائج	٩٧
التوصيات	٩٩
قائمة المراجع	١٠١
فهرس الموضوعات	١٠٧

المملكة العربية السعودية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – ص.ب (٥٧٠١) – الرياض (١١٤٣٢)
هاتف (٢٥٨٧١٩٤ – ٢٥٨٢٩٨٠ – ٢٥٨٧٣١١ ١١ ٩٦٦+) – فاكس (٢٥٨٧١٩٥ ١١ ٩٦٦+)
البريد الإلكتروني : Kahq@imamu.edu.sa – الموقع الإلكتروني : Kahq.imamu.edu.sa

طبع في مطابع الجامعة